كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

ماستر: تاريخ الهجرات والتحركات السكانية بالحوض الأبيض المتوسط

السداسي الثاني

وحدة:

هجرة العلماء المغاربيين الى المشرق

نماذج تمثيلية

د. جمال حيمر

السنة الجامعية: 2019 - 2020

هجرة العلماء الغاربيين الى المشرق
نماذج تمثيلية

يكتسي موضوع الصلات بين المغرب والمشرق بأبعادها الدينية والفكرية والاقتصادية والسياسية أهمية بالغة، وإن حضي هذا الموضوع باهتمام بعض الدارسين فإنه لم يستقطب بعدها ما يستحقه من مزيد عناية وتقصي يوازي أهميته الفائقة.

ولعل أهم ما يدفع الى الاهتمام بقضية التواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق هو قدم هذا التلاقح والاحتكاك العلمي والفكري واستمرارهما عبر العصور، فلئن تعطلت الاتصالات السياسية والاقتصادية أحيانا فإن العلاقات الثقافية بين المسلمين في الشرق وبين المغاربة لم تنقطع، وظلت الثقافة العربية الإسلامية القناة الرئيسية والخيط الرابط بين مختلف البلدان العربية والاسلامية.

ولما كان الحج الى بيت الله الحرام بمكة المكرمة إحدى الممارسات الدينية التي كانت وما تزال تتجسد عبرها بقوة ووضوح علاقة المغرب بالمشرق، فإننا نستطيع القول أن الرحلات التي قادت المغاربة نحو المشرق قد اكتست أبعادا مختلفة وأهدافا تداخلت في الرحلة الواحدة، إذ كانت ركاب الحجيج تضم العامة والخاصة وكان منهم الغني والفقير والأمي والعالم والفقيه والصوفي والأمير والسفير والتاجر والحرفي والفلاح.

وإذ لا يسمح المقام بتناول تداخل كل أبعاد وأهداف هذه الرحلات/الهجرات (الدين والعلم والسياسة) نكتفي في هذه الورقة بوقفة على نماذج تمثيلية لهجرة العلماء المغاربيين الى المشرق، وهي هجرة علمية تنوعت دواعيها بين الاحتكاك بشيوخ العلم وحضور المجالس العلمية وطلب الإجازة من علماء المشرق، وطلب العلم في الإسناد وجلب الكتب أو اقتناء جديد المصنفات ونقل المرويات وتبادل المعلومات بين المغرب والمشرق والإفادة العلمية.

ولمقاربة هذا الموضوع تشير الى أنه إلى جانب المصنفات التاريخية المتداولة والمتون الرحلية، لابد أن يعتمد على أصناف أخرى من المصادر نخص بالذكر منها ما يتصل بالحياة الطرقية من مناقب وأوراد وأذكار لانتشار هذه الظاهرة في المشرق والمغرب وتمتينها للعلاقات الروحية.

فضلا عن ذلك يتوجب أن تتوجه الأنظار الى الفهارس والإجازات لما تحتوي عليه من معلومات على غاية من الأهمية حول العلماء والفقهاء وطرق التعليم... كما لا يفوتنا الإشارة الى أنواع أخرى من المظان كالكناشات بالنسبة للمغرب والتذاكر بالنسبة للمشرق والتي تزخر بالمعلومات حول حياة العلماء

وتنقلاتهم وآرائهم وكذلك الشأن بالنسبة للوثائق العائلية الخاصة من عقود ملكية أو تحبيس للكتب إذ كانت لبعض العائلات العلمية في المغرب مكتبات خاصة.

إن وفرة المصادر والوثائق التاريخية ذات الصلة بالتواصل الحضاري بين المغرب والمشرق لا يمكننا هنا –لضيق المجال- من الإحاطة بمختلف جوانب المسألة واستنفاذ البحث فيها، ولا يمكن لنا هنا بطبيعة الحال تعداد العلماء وحصرهم وإنما سنكتفي بذكر الأعلام الذين تحولوا الى رموز التواصل بين المغرب العربي وشرقه خلال العصور الحديثة.

الجاذبية الدينية والعلمية للمشرق العربي:

1- الرحلات الحجازية:

من الدوافع الملحة لانتقال المغاربة الى المشرق العربي نجد العامل الديني ولاسيما أداء فريضة الحج وما يتصل بها من طلب العلم والجهاد في سبيل تحصيله، فقد كان ركب الحج المغاربي ينطلق سنويا من فاس في أواخر جمادى الثاني ليصل الى القاهرة في حدود النصف الثاني من رمضان ومنها الى البقاع المقدسة وذلك بعد رحلة طويلة عبر الجزائر والجنوب التونسي وطرابلس، ولكن كانت نسبة هامة من الحجيج المغاربة توفق بين الأغراض الدينية والدنيوية في هذه الرحلة بالمساهمة في التبادل التجاري بين المغرب والمشرق فإن نسبة أخرى من الحجيج المغاربة كانت تكرس جهودها للاستفادة العلمية عن طريق ما يلقى من دروس في مختلف المراكز العلمية الواقعة على طريق الحج أو من خلال شراء الكتب والمخطوطات للنهل منها أو الاتجار بها، وذلك فضلا عن ربط صداقات والاتصال المباشر بين مختلف العلماء أو مشايخ الطرق الصوفية والمريدين من الحجاج. وأمام كثرة العلماء المغاربة الذين هاجروا الى الحجاز والشرق العربي عموما واتصلوا بعلمائه يمكن أن نبدأ بذكر العلماء الذين خلدوا رحلاتهم العلمية والدينية بتدوين ما شهدوه وما أثر فيهم ليس فقط في الحجاز ولكن كذلك في مختلف المدن والمحطات الواقعة على طريق الحج. وقد عرفت هذه الكتابة بالرحلات الحجازية وتعتبر من القرائن الهامة عن ذلك التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومشرقه. فلقد انتشر هذا الجنس الأدبي بين علماء المغرب الأقصى بصفة خاصة وفي زمن مبكر مقارنة مع علماء الجزائر وتونس حيث لم يظهر هذا الجنس ولم يتطور إلا بداية من القرن الثامن عشر، فمن المغرب الأقصى يمكن الإشارة الى رحلة العياشي الشهيرة ومن بعدها رحلة عبد المجيد الزبادي فالتاودي بن سودة الذي قام بفريضة الحج سنة 1767م فرحلة الزياني ثم رحلة محمد العربي المشرفي المسماة بالرحلة العريضة لأداء الفريضة فرحلة الطيب بنكيران المعروفة بالرحلة الفاسية. وليست هذه سوى عينات من بين عدد كبير من رحلات علماء المغرب الأقصى الى الحجاز خلال العصور الحديثة، وهي تعبر عن وجود تيار هام من العلماء والأفكار واحتكاك دائم بين المغرب

الأقصى والشرق العربي عموما. أما من الجزائر فقد ذكر الأستاذ سعد الله عددا من الرحلات الحجازية للعلماء الجزائريين، ومنها الرحلات الشعرية كقصيدة عبد الله بن عمر البسكري وقصيدة محمد بن محمد بنمنصور العامري التلمساني (ت 1748م) وقصيدة عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المجاصي (ت1852م). أما من الرحلات الحجازية النثرية فلابد من ذكر رحلة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني المسماة "الروضة الشهية في الرحلة الحجازية" والتي قام بها سنة 1762م ولم يقع العثور عليها، وفي نفس الفترة تقريبا قام ابن عمار بتدوين رحلته المسماة "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة الى الحبيب" والتي لم يبق منها الا المقدمة.

لكن من أهم الرحلات الحجازية للجزائريين يمكن أن نذكر رحلة تلميذ ابن عمار أبي راس، فقد عرف بترحاله المتواصل وقيامه بفريضة الحج مرتين سنة 1204هـ/1789م وسنة 1226هـ/1811م، وقد دون أبي راس في كتابه "فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" العديد من الأخبار المتعلقة بمشايخه وبالحياة العلمية والدينية في الشرق العربي ومغربه. ومن أشهر الرحلات الحجازية للعلماء الجزائريين وجب ذكر رحلة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني (ت1193م) المسماة ب"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، فهي تمتاز عن غيرها من الرحلات بما تحويه من معلومات تاريخية وملاحظات عن الأماكن التي مر بها فضلا عما فيها من أخبار التصوف والمتصوفين بالمشرق العربي ومغربه خلال منتصف القرن الثاني عشر للهجرة. وبالرغم من آداء العلماء التونسيين لفريضة الحج شأنهم في ذلك بقية العلماء المغاربيين فإنهم لم يخلفوا آثارا أدبية عن ذلك، فلم يتطور أدب الرحلة لدى علماء تونس في العصرين الحديث والمعاصر إلا بصفة محتشمة ومتأخرة. وممن بين علماء القرن 17م يمكن أن نذكر المفتي أحمد الشريف (ت1645م) وكذلك القاضي الحنفي محمد برناز (ت1673م) وغيرهم كثير هاجروا الى المشرق كما قام حسين خوجة (ت1755م) برحلتين للبقاع المقدسة، الأولى سنة 1699م والثانية سنة 1713م، وقد زار حسين خوجة خلال هذه الرحلة اماكن وبلدان عديدة كدمشق والقدس مرورا بالاسكندرية والقاهرة. ولئن لم يضع حسين خوجة تأليفا خاصة بذلك فإنه ترجم في ذيل كتابه "بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان" لعدد من علماء المشرق العربي الذين التقى بهم في رحلته من أمثال الشيخ محمد العابد صاحب كتاب "حصر الشارد في أسانيد محمد عابد" وغيره من العلماء كما ذكر بعض العلماء الذين اتصل بهم في الازهر وأخذ عنهم وبمكة والمدينة.

وتعد الرحلة الحجازية للشيخ محمد السنوسي (ت 1900م) من أبرز الرحلات الحجازية التونسية، فقد قام سنة 1882م برحلة الى البقاع المقدسة، فاتجه أولا الى إيطاليا ومنها الى اسطنبول فالحجاز ذهابا ومنه لبى دمشق فبيروت وبورسعيد فمالطا في طريق العودة. وتعرف بمكة على عدة علماء هنود كرحمة الله وحبيب الرحمان الموسوي وغيرهم، واتصل بعدد آخر من العلماء في اسطنبول منهم شيخ الطريقة

المدنية الشاذلية محمد ضافر، ويعتبر محمد بيرم الخامس (ت1889م) وهو صديق الشيخ محمد السنوسي من العلماء التونسيين الذين سجلوا انطباعاتهم عن المشرق العربي وعن الحجاز، فخصص لهذه الأقطار فصولا في كتابه "صفوة الاعتبار لمستودع الأمصار والأقطار".

إن المطلع على هذه الرحلات الحجازية يتبين مدى تعلق المغاربيين ورغبتهم في الهجرة الى المشرق العربي، ذلك أن التعاليم الدينية كانت تحث الحاج على الاتصال بالعلماء واغتنام تواجد العلماء المسلمين من مختلف الأنحاء في مكان واحد وزمان واحد. هذا ولم يكن للمشرق العربي جاذبية روحية ودينية، وإنما كانت له أيضا جاذبية علمية حفزت المغاربين على الهجرة صوبه متحدين الأخطار والمشاق التي تعترض طريقهم.

2- **الرحلات العلمية الى الأزهر**:

تبعا لذلك انتشرت الرحلات العلمية من المغرب العربي الى المشرق ولاسيما الى مصر، فقليلا ما نقف على ترجمة عالم شهير لم تكن له رحلة علمية الى الديار المصرية، لكن اتصال المغاربة بمصر والشام واسطنبول لم يكن بدافع العلم فقط بل كانت وراء هذه الهجرة دوافع أخرى منها السياسية كالفرار من الاضطرابات ومن قمع السلاطين وامتحانهم للعلماء.

كما لعبت العلاقات التجارية بين المغرب العربي ومشرقه فضلا عن وجود جاليات من المغاربيين بمصر خاصة دورا هاما في هجرة العلماء الى الأزهر، فقد كان مركز جذب علمي هام بالنسبة الى المغاربيين، لكن هذا الجذب لم يكن بداهة بنفس القوة ولا بنفس الأهمية على الأقطار المغاربية خلال العصور الحديثة.

فبالنسبة الى وضعية المغرب الأقصى يمكن القول استنادا الى ما ذهب إليه الأستاذين عدنان لبيب رزق ومحمد مزين بأن العلاقات الثقافية بين قرويين فاس وبين الأزهر قد عرفت تطورا ملحوظا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ف حين كان عدد العلماء المهاجرين من المغرب الأقصى الى مصر خلال القرن السادس عشر قليلا لاعتبارات سياسية وأمنية.

وخلال القرن السابع عشر نجد مالا يقل عن عشرين عالما مغربيا ترددوا على رواق المغاربة بالأزهر، ونخص بالذكر منهم شهاب الدين أحمد بن محمد المقري الذي هاجر الى مصر واستقر بها حتى وفاته سنة 1631م. ومن علماء القرن الثامن عشر يمكن أن نذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن زكري والشيخ محمد السقاط المغربي وغيرهم ممن هاجروا صوب الديار المصرية.

أما عن الجزائريين فيمكن أن نذكر عيسى الثعالبي ويحيى الشاوي وأبو العباس الجزائري وغيرهم ممن ترجم لهم الجبرتي وذكرهم في وفياته. وقد نزل برواق المغاربة بالأزهر عدد هام من العلماء التونسيين

ويمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر من علماء القرن 17م الشيخ الإمام محمد بن شعبان الذي تردد على دروس شيوخ الأزهر الى أن توفي بالقاهرة سنة 1687م، ومن علماء نفس الفترة يمكن أن نذكر الفقيه علي بن خليفة الحسيني الشريف ال الذي هاجر لمصر لتلقي العلم بالأزهر تم عاد للتدريس ببلده وقد ترك فهرسة في أسماء شيوخه ومروياته لاسيما مشايخ الأزهر. ومن الطلبة التونسين الذين عرفوا بهجرتهم الى مصر لطلب العلم بذكر أصيلي حرية وصفاقس، فقد كان لوجود جالية من التجار والصفاقسية بالاسكندرية والقاهرة أثر كبير في توافد العلماء التونسيين والطلبة على الأزهر وكذلك الشأن بالنسبة لاسطنبول، ولعل من أشهر العائلات الصفاقسية التي بين طلب العلم والتجارة بمصر وهي عائلة النوري ومنها الفقيه الصوفي علي بن سالم بن محمد النوري (ت1706م) فقد جاور بالأزهر حوالي خمس سنوات تم رجع الى بلده صفاقس للتدريس والإفادة.

ومن أشهر العلماء الذين هاجروا الى مصر خلال القرن 18م الشيخ أبو الحسن بن عمر القلصي (1741م) وشغل منصب شيخ رواق المغاربة، هذا ويبدو أن تحسن الأوضاع السياسية والاقتصادية بتونس بعد النصف الثاني من القرن 18م قد قلص من هجرة العلماء التونسيين الى مصر والمشرق العربي عموما فقد أصبح الجيل الأول من العلماء الذين هاجروا وتتلمذوا بالمشرق قادرين على العلم في تونس، بل أصبح الجامع الأعظم بتونس مركز جذب بالنسبة الى العلماء المغاربة فضلا عن تدفق عدد من العلماء المشارقة ولاسيما من اسطنبول على البلاد التونسية، من هنا يمكن القول بأن المغرب العربي لم يكن يمثل مناطق دفع فقط بل أصبحت المراكز العلمية به تستقطب لعدد هاجر من العلماء من مختلف الجهات، فعلاوة على التيار الثقافي الذي ربط بين المغرب والمشرق لابد أن نقر بوجود تيار معاكس له.